قنهائي

جعفر الديري

مجموعة قصصية

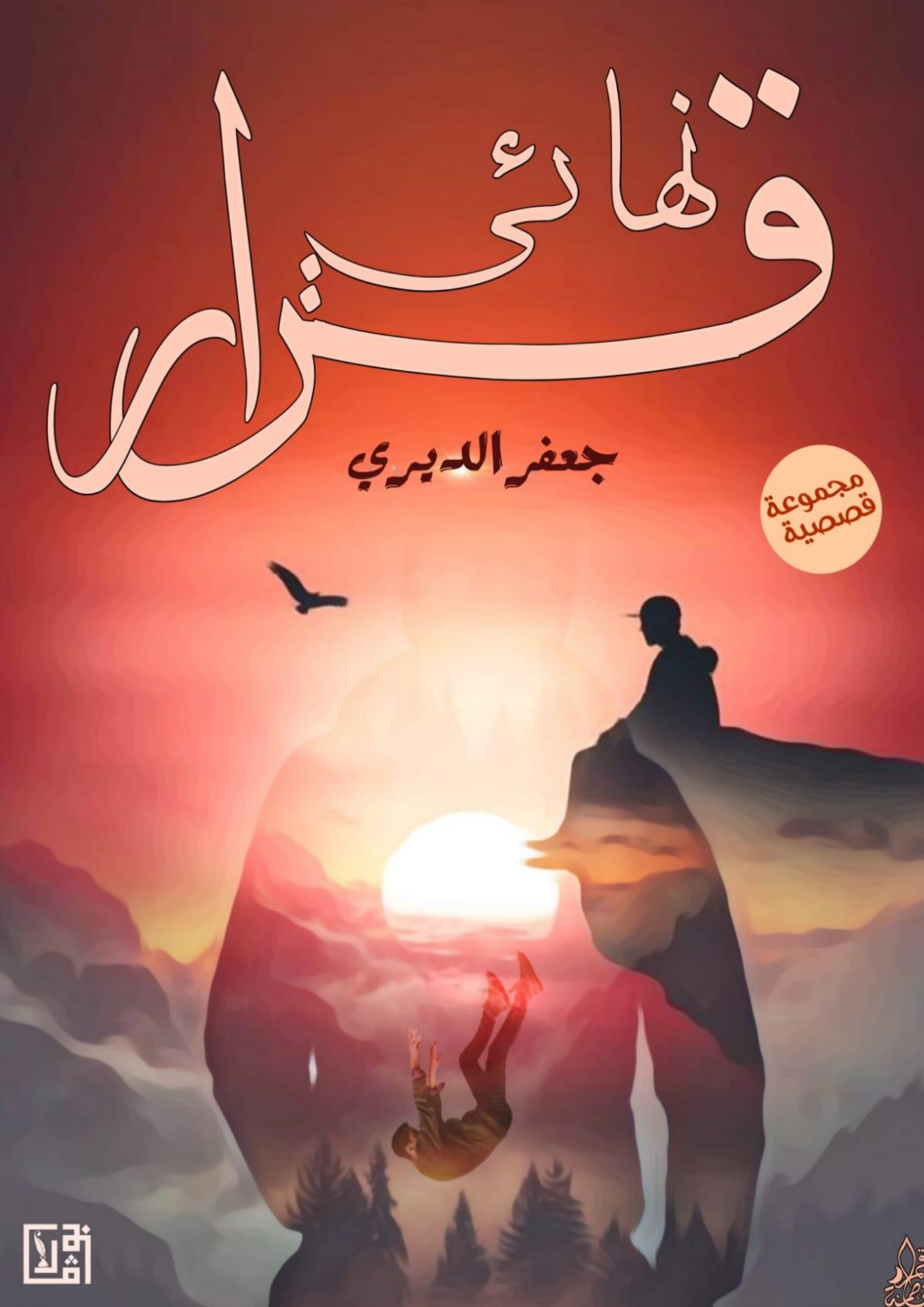

قرارٌ نهائي

بوقار
بيت الأدب

جعفر الديري

بوقار
بيت الأدب
Bovvar

نوع العمل : قصص

الكاتب : جعفر الديري

تدقيق : سلمى الجوهري

تصميم الغلاف : فاطمة قمر

تصميم داخلي :سارة عيد

تعبئة وتنسيق : سارة عيد

فريق عمل بوقار " بيت الأدب " للنشر الإلكتروني

https://www.facebook.com/DarBovaar

هذه المرَّة أيضًا

بأصابِع اعتادت إمساك الكوب بثبات، راح عبدالجليل يتلذَّذُ بشُرب الشاي، مُثيرًا حفيظة عبدالمنعم صاحب المقهى، فهذا هو الثالث الذي يملأ به جوفه، دون أن يدفع مقابله فِلْسًا واحدًا.

ولابد أن مشكلة عبدالجليل كانت تُلح عليه؛ فبعد أن كان المقهى قِبلة الناس، خاصة في أيام العطل والأعياد، صار عددهم يَقِل تدريجيًا، حتى اقتصر على بعض الغرباء، وهؤلاء أيضًا، لا يكادون يتعرَّفون على عبدالجليل حتى يفرّوا دون رجعة.

وكم من مَرَّة قرَّر فيها عبدالمنعم أن يطرد عبدالجليل، لكنه سرعان ما يتراجع، كُلما نظر إلى وجهه، وقد تضخم حتى أصبح كرة ثقيلة برزت فيها خطوط متشابكة من آثار العمليات العديدة، فيما شُدَّت العينان إلى السماء، فهما في حديثٍ دائم مع النجوم وتراءت لذِهْنه تلك الصورة الواضحة في الذاكرة، يوم

كان هذا الحُطام، مُدرِسًا قديرًا، ومُشرفًا حازمًا، يخشى سطوته المراسلون والفرَّاشون على حدٍ سواء.

عبدالجليل -الذي يجلس اليوم على مقعده الخشبي، مُشَوه العقل والجسم، لا تستقر عينه على شيء- كان يسترعي انتباه الجميع، بأحاديثه الشيِّقة ومنطقَه السليم، وفصَاحته التي تعبِر عما تريد بكلمات قليلة، وكأنه كان يُحضِر كل كلمة قبل نطقها.

هنا، بثوبه الأبيض الجديد دائما، وغُترته وعِقاله العربي، وعطره النفاذ، اعتاد الجلوس بصحبة زملائه المُدرِّسين، نموذجًا للمُرَبِي الفاضِل، حيث الحزم واللين، وقوة الشخصية وطيبة القلب، والثقافة والتجربة.

أمّا هذا الصامت دائمًا، الذاهل عن كل شيء، فهو مسكين، له أكثر من ثمانية أعوام، لا يتذكر من يكون، ولا يعرف مكانًا سوى هذا المقهى داخل السوق الشعبي، الأطباء نفضوا أيديهم منه، فهم عاجزون عن علاجه، وأقاربه تخلَّوا

عنه، حتى أخوه غير الشقيق، ولم يتبقى له سوى أخت، دائمة السؤالؤ عنه، بعد أن آثرت زوجته الطلاق، متع

متعلِلَة بضعفها عن رعايته، ورعاية أبنائها منه.

والأصدقاء أيضًا، لم يكونوا أصدقاء، كانوا مُجرَّد أصحابًا يخرجون معه، انقطعوا عنه حين أصيب في الحَادِث الجَلِل، وباعَدَت بينه وبينهم المسافات.

تتسِع عيناه أحيانًا، ويشرق وجهه، وترتسم ابتسامة سعادة على شفتيه، سرعان ما تتطور إلى ضحك متواصل، أحيانا أخرى تنقبض ملامحه، ليبرز الحزن جَلِيًا صارخًا، يدفعه للبكاء، دون جدوى من محاولة تهدئته، ثمَّ يكْسُوه هدوء غريب، يُحوِّل صاحبه إلى خشبة مسنّدة، ساكنة سكون الأموات، حائرًا أمام لغز الحياة، متسائلًا عن عِلَّة تُغَير الإنسان إلى النقيض، جَرَّاء حادث سيارة.

وهذه المرَّة أيضًا، أَحَسَّ عبدالمنعم بالعجز يشمله، فلا هو قادر على الخروج بحَلِ لتراجع مدخول المقهى، ولا هو مستطيع طرد عبدالجليل، رغم إيمانه بأنه وفَّى حقَّ الجيرة والصحبة القديمة، وشعوره أنَّه لم يعد قادرًا على تحمُّل المزيد.

وربَّما بسبب العجز نفسه، والضيق الذي يشعر به، وجد نفسه تصيح بغضب:عبدالجليل.

فأعاد الرجل المسكين من عالمه الخفي، إلى أرض الواقع، وقد جحظت عيناه خوفًا وقلقًا، فتمتم فزعًا: ماذا؟ .

عندها؛ وبدلا من أن يطلق عبدالمنعم سيلا من الكلمات، يُخفِّف بها شيئًا من أشجانه، انتابته شفقة عظيمة تجاه عبدالجليل، زادت من إحساسه بحجم المأساة التي يعيشها إنسان مثله، تردَّى به الحال حتى أصبح مسخًا، يهرب منه الجميع بمن فيهم الأقارب والأصحاب، فقال في صوت منكسر: لا شيء، استمتع بشرب الشاي.

ثم أخذ بتأمُّله، وعيناه تتنديان بالدمع .

بوقار بيت الأدب

الحَيّ العَتِيق

طرق الباب بهدوء يناسب بيت أرملة مسنَّة، ولم يلبث إلا قليلًا حين أطلَّت امرأة، سارعت إلى إخفاء وجهها بطرف ثوبها.

ابتسم، وقد تخايلت لعينيه تلك الأيّام البهيجة من طفولته: السلام عليكم.

ردّت المرأة، متطلّعة إليه بعينين كليلتين: وعليكم السلام.

- ألست الحاجة أم علي؟

- نعم، ومن تكون؟

- أنا عيسى بن الحاجة خديجة، كنا نسكن قريبًا من هنا، ألا تتذكرين أُمِي؛ أم أحمد؟

وكأنَّما استيقظ زمان عزيز على نفس المرأة، دفع حَدَقتيها إلى الانفتاح، وشفتيها إلى الإنفراج بابتسامة طيبة.

- أهلا بك يا ولدي، كيف حال أُمُك؟

بوقار بيت الأدب

- بخير ولله الحمد، كانت تتمنَّى زيارتكم لولا الروماتيزم اللعين.

- ساعدها الله، وأَيُّنا لم يصبه الضعف والوهن؟

- حفظكم الله، هل الحاجة أُم محمود بالداخل؟

- نعم، إنّها على فراشها.

- أرجو أن تأذني لي بعيادتها.

- انتظر ريثما أخبرها.

وغابت في الداخل لدقائق، كانت كافية ليجول بعينيه في المكان الذي لم يتغير فيه شيء.

حتَى البيوت، احتفظت بطابعها القديمة، بيت سيد محمد، حيث التراب يشغل نصف مساحة البيت، لقد كان ملتقى الأطفال.

وبيت الحاج جواد، حيث يجتمع أبوه ككُلّ رجال الحَي في المجلس العامر، وحيث متجر الحاجة زهرة، المليئ بأكياس المينو وآيس كريم الحليب المصبوب في كؤوس من النحاس، والبالونات مختلفة الأشكال والألوان.

ومجلس النسوة في بيت الحاج إبراهيم، ترتفع فيه عقائرهن عصرًا بالبكاء والنحيب، والمسجد الكبير؛ حين يؤذن المؤذن فلا يتخلَّف أحد عن الصلاة فيه.

ذكريات أشعرته بالأسف لفراق الحَي العتيق، والانتقال إلى آخر لا حياة فيه، يغلق الناس فيه أبوابهم، ويتجنَبون بعضهم.

وعادت المرأة داعية إيّاه للدخول، وما إن وطئت قدماه أرض البيت حتَى غمره شعور بأنَّه ذلك الطفل ذو السبعة أعوام، من كان يقضِي جزءًا من يومه مع عادل بن صاحب هذا البيت، من اختطفه البحر على حين غرَّةٌ منه ومن زملائه.

وعجب لتصاريف الأيام، فإنّ الصورة التي حفظتها ذاكرته للبيت، ظلَّت كما هي، فهو دون سقف، معرّض للمطر والغبار والرياح، في صدره غرفة مفتوحة

بوقار بيت الأدب Bouvar

الباب، على يمينها المطبخ، وقام حمّام على يمين الداخل، يقابله دَرَج يُفضي إلى السطح.

واقترب من باب الغرفة، فطالعه وجه امرأة جالسة على سريرها، ميَّزها على رغم الظلام.

وتوجَه لها، وطبع قُبلة على رأسها الأشيب..

- اجلس هنا، أودّ أن أراك جيدًا.

جلس على الكرسي، فيما توجَهت الحاجة أم علي إلى المطبخ.

- بك الخير أنّك تذكَرتني يا ولدي.

- أنا لم أَنْسَكُم لحْظة يا خالة.

- أنت أفضل من ذلك الولد العاق.

كانت تعني ولدها محمود من آثر أن يضاعف حزنها، حين اختار أن يبتعد عنها وعن شقيقتيه، وأن ينتقل للعيش في بلد بعيد مع زوجة تختلف اختلافا كليًا

عنها وعن بناتها، على رغم جرحها الذي لم يندمل بموت عادل ، كان يكبره بخمسة أعوام، والحق أنّه لم يُفاجأ حين علم أَنّه استقرَّ بعيدًا عن أمّه؛ لقد كان شديد الطموح.

وأضافت في صوت غلبه التأثر:

- أتعلم ، مضى عام كامل منذ شاهدته آخر مرة.

شعر بحزن صادق يغزو قلبه، وحمد الله تعالى أنّه بارًا بوالدته، ولو كان محمود شخصا آخر، لقال إنها تبالغ بشأنه، لكنّه كان يعرفه جيدًا، ويدرك مقدار ما به من أنانية وغرور.

- إنّه يكتفي بالتحدث إليّ هاتفيًا، وكُلما أبديت له اشتياقي وعدني ثم لم يف بوعده.

- لعَله مشغول بالفعل.

- إنّه لم يحضر جنازة أبيه أيضًا.

وأضافت بصوت ضعيف:

- لو كان عادل حيًا يرزق لهوَّن عليَّ كل شيء.

وآمن في دخيلة نفسه بكل كلمة نطقتها المسكينة، لو كان عادل حيا يرزق لرعاها وقام بحقِها على أكمل وجه.

وقال محَاولًا أن يزيل شيئًا من تعاستها:

- لقد أنجبت ولدي البكر وأسميته عادل.

فاضت عيناها دمعًا:

- فارعاه إذاً يا بُني، ولا تتركه يغيب عن ناظريك.

ورغمًا عنه غلبه الحزن، فتندَّت دموع عزيزة من عينيه.

كان عادل إلفه الذي يلازمه، كان معه لآخر لحظات حياته.

عادل الطفل الضحوك، كان يمرح معه ومع لداته سعيدًا في البحر، حين أقبلت موجة بغيضة، أخذته بعيدًا، ظلوا ينادون عليه، لكنهم كانوا أطفالًا لا حول لهم ولا قوة.

جاءت أم علي بالفاكهة، فشكر لها أنها أنقذته من هذا الموقف، تناول منها قضمة من تفاحة يمضغها بينما عيناه لا تغادران الأرملة المريضة.

وكان يتمنى أن يمكث وقتًا أطول، لولا أنه لاحظ تعبها وحاجتها للنوم؛ فاستأذن واعدًا بزيارة أخرى.

غير أنه وما أن اقترب من باب الخروج حتى شعر بعينين تلاحظانه! التفت للخلف بسرعة؛ فوجد عادل يبتسم له.

شبح لا شك!

كان عادل بالفعل، الطفل الصغير بثوبه الأبيض، وابتسامته الرائعة.

بادله الابتسام، ثم توارى، وأدرك أن عادل لم يكن ليفوت فرصة إلقاء التحيَّة على صديق الطفولة.

بوقار بيت الأدب

أبناء كالجُربِ المثقُوبة

إنَّ آثار النِعمة ظاهرة في البيت، كُل ركن فيه يَشي بالحَياة المُرفهة، الحياة التي تمنَّاها بحق.

حتَّى جلوسه الآن على هذه الأريكة الثمينة، في هذا الطقس المنعش، دليل آخر على مبلغ ما هو فيه من نعمة يحسده عليها الجميع.

رغم ذلك، يشعر بالضيق والكدر، ويحاول التسلِي بكل شيء دون فائدة، وكأن القدر نفس عليه أن يجمع المال وراحة البال، وإلا فما معنى هذه الهواجس التي ترفض أن تفارق رأسه؟ و متى يظل رهينَا لأبناء كالجرب المثقوبة؟

إن أراد الحق فهم جميعًا فاشلون، لم يفلح منهم أحد، لا في دراسة ولا عمل، بالكاد استطاعوا إتمام الثانوية العامة، وكم تمنى صادقًا لو كاشفه أحدهم برغبته في إكمال دراسته، لأنفق عليه كل ما يملك.

يدرك ذلك جيدًا، ويدرك مقدار ما أخدوه من خيلانهم، أكبرهم حاول الانتحار حين رفضته الفتاة التي أحب، وأوسطهم كاد أن يهوي لحفرة الإدمان لولا ستر

بوقار بيت الأدب

الله، وأصغرهم، مجنون سيارات أصلي، يتصرّف كالأطفال، رغم بلوغه العشرين.

لماذا يا ربي؟ إنّ أبناء الفقراء، الذين يعملون في مؤسسته، أشدّ منهم ذكاءًا وأكثر رغبة في طلب العلم، وسيصبحون عن قريب أطباء ومدرسين، ومحامين، وسيظل أبناؤه في الدرك الأسفل من الحمق والجهل.

طرقات شديدة على الباب.

نفخ فمه من صدر مكلوم، وهزَّ رأسه ضجرًا من الخال الغبي، البليد الإحساس.

- السلام عليكم.

رد في نفاذ صبر

- ألا تعلم أنّي أفضل الجلوس لوحدي في هذا المكان؟

قال الخال وفمه ينفتح عن أسنان مُثلّمة مضحكة

- سأفعل ما أشاء رضيت أم أبيت.

بوقار بيت الأدب

وجلس ثمّ مدّ يده دون استئذان لعلبة السيجار، وأخذ يدخِن ويتأمَّل في حركة الدخان؛ فابتسم رغمًا عنه، وأخذ في تأمُله وهو يهز رأسه.

- حقّا، شرَّ البلية ما يضحك.

قال الخال في صوت مرتفع: هل قلت شيئا؟

ردّ وقد استجاب لرغبة طبيعية في الضحك: أبدًا.

وأضاف في صوت واضح: ما أغباك وما أضيق عقلك.

حاول القيام، لكن الخال البليد منعه من ذلك.

- انتظر، أود أن أفضي لك بشيء.

ساوره شعور الخوف من مصيبة جديدة حلَّت به.

- ماذا تريد؟

- ولدك.

- أي ولد؟

- عبدالله.

رجف قلبه بشدة.

-ماذا به؟

- لقد اصطدم بسيارته.

ضرب رأسه بقوة، ثم قال ذاهلًا: هل أصابه مكروه؟

- لم يصبه شيء، ولكن..

- ولكن ماذا؟ تكلم.

- أصيب الشاب الآخر، ونقل للمستشفى على عجل.

لطم خدّيه بقوة، وصاح بصوت كالرعد: اللعنه عليك؛ اللعنة عليكم جميعًا.

ثم أمسك الخال بيديه القويتين، وجعل يهزه بعنف.

- أنت وأشقاؤك سر عذابي، لقد نقلتم لأبنائي كل أمراضكم؛ اللعنة عليكم اللعنة عليكم.

ثم وقف وأخذ بالتمشي في المكان، وهو يهز رأسه، ويحرك يديه، عاجزًا عن فعل شيء، حتى إذا وصل للجدار، ضرب جبهته به، وقال وقد دمعت عيناه: لماذا تفعل بي هذا يا ربي؟ لماذا؟

ثم استدار؛ فوجد الخال البليد، يحاول أن يأخذ سيجارة أخرى، فنزع نعاله من قدمه وألقاه بقسوة عليه، صائحًا: أخرج؛ خرجت روحك من بدنك.

وتوارى الخال من المكان كما يتوارى القط، فألقى بنفسه على الكنبة، ووضع أصابعه على جبهته، وراح يهز رأسه، عاجزًا عن صد تيار أفكارِه.

بيت الأدب

بوقار Bouvar بيت الأدب

البيتُ الأصْفر فاقِع اللون

إذا أخذت بك قدماك إلى الجزء الغربي الشمالي من القرية، ومضيت تقطع الشاطيء المُطِل على البحر، فسيلفت نظرك قبر قديم العهد، مُحاطٌ بالأسلاك.

كان هذا القبر فيما مضى، قائمًا داخل بيت يعرف باسم البيت الأصفر فاقع اللون، قبل أن ترى الجهات الرسمية هدمه، ثمّ إزالته تمامًا.

ولم يكن الناس يعلمون بشأن هذا البيت، أكثر من أن رجلًا وفِد إلى القرية، فاشترى أرضًا تُطل على البحر، بناه فيها، وقضى فيه قرابة عام لا أكثر، وحيدًا منعزلًا، يرفض أية محاولة للاختلاط بالناس، حتى مات وأوصى أن يدفن فيه.

وبحسب كبار السن، كان الرجل يجلس عصر كل يوم، على كرسي بإزاء البحر، مستغرق التفكير، شارد الذهن، ساهمًا عن كل ما حوله.

وكُنا نحن أطفال السبعينيات نتأمل البيت على الشاطيء المقابل له، فنعجب لشكله، ففي تلك السنوات كانت البيوت واسعة دون طوابق، وكان اللون

بوقار بيت الأدب

الأبيض هو الغالب عليها، أما ذلك البيت فكان غريبًا فعلا؛ فالطابق الأرضي منه كان كتلة واحدة من الأسمنت، بباب واحد من حديد، دون نوافذ.

والطابق الأول كان بناءًا مستديرًا أصفر، ذو نوافذ مستديرة كبيرة، أمّا الطابق الثاني، فكان غرفا متلاصقة صفراء، فوقها غرفة عُلوية مطْلِية باللون الأصفر أيضًا.

وأتذكر جيدًا، وكنت في الثانية عشرة من عمري، أنني سمعت صوت جلبة خارج بيتنا، وعندما فتحت الباب وجدت جمعًا من الناس حول امرأة غريبة على أهل القرية.

كانت في حال يرثى لها، وعبثًا كان الناس يحاولون تسكين روعها دون جدوى.

كانت أشبه بمن مسّه طارق من الشيطان، فعينها لا تستقر على حال، وجسدها ينتفض انتفاضة الخوف والفزع.

وشاع في القرية أنّها جُنَّت، بعد أن قصدت البيت الأصفر، مُدَعية أن المدفون فيه، قريب لها.

بعد ذلك ظل أمر البيت وصاحبه، سِرًا مغلقًا على الجميع، يتأملونه من الخارج فقط، دون أن يجرؤ أحد على الدخول إليه واكتشاف ما فيه.

أمّا أنا كشأن أطفال القرية، شُغلت لبعض الوقت بأمر هذا البيت، ثم نسيته في ظل عبث الطفولة وحلاوة الصبا، وجموح المراهقة، حتى جاءت فرصة الدراسة الجامعية في الخارج، فتلاشى البيت من ذهني تمامًا، غير أن القدر كان يعد لي أمرا عجبًا؛ فهناك في سكن الطلاب في الدولة الشقيقة، كانت كثيرًا ما تنعقد بيننا نحن الطلبة حلقات السمر حتى وقت متأخر من الليل، وكانت المواضيع تشرق وتغرب بنا.

وفي إحدى الليالي وكان الطقس حسن، وقد شُرعت أبواب الصالة، مُرحِبة بتيارات الهواء، كان الحديث قد مال بنا إلى موضوع المنامات، وأيها يكون رؤيًا صادقًا، حين انبرى أحد الطلاب، ودعانا إلى الإصغاء إليه، مقسمًا أن ما سوف يرويه ليس من نسج خياله.

ثم راح يحكي حلمه المدهش، لقد رأى نفسه فجرًا في قارب واقف عند أسفل بيت غريب الشكل، أصفر اللون، ذو طوابق ثلاثة، الأرضي كتلة من الأسمنت، والأول بناء مستدير أصفر، والثاني غرف متلاصقة صفراء، فوقها غرفة عُلوية.

وذكر الطالب أنه قصد باب البيت وكان من الحديد، وأخرج مفتاحًا من جيبه، وفتح القفل، وعندها وقعت عيناه على قبر وحيد وسط التراب، وشاهد رجلا نحيفًا يجلس القرفصاء بالقرب منه، ويتطلع إلى السماء شأن الذاهل عما حوله.

ثم شاهد الرجل يتجه متثاقلًا إلى الأعلى، فتبعه وهو يصعد السُلَّم، حتّى بلغ الغرفة العلوية، وهناك وجده يستلقي على فراشه، لتغفو عيناه، وكنت أستمع إليه مدهوشًا، وحين سألته إن كان قد زار قريتي، وتعرف على البيت الأصفر فيها، أكَد أنه لم يزرها يومًا، وأنه حتى هذه الساعة يتمنى لو يشاهد عيانًا ما شاهده في الحلم.

بوقار بيت الأدب

اتفقت وإياه على أن نزور سويّا البيت الأصفر، عندما نعود إلى ديارنا في العطلة الصيفية.

وظلت هذه الحادثة تُلِح عليَّ، إلى أن زارني، فتوجَهت وإياه للبيت الأصفر، وهناك عبّر عن دهشته الشديدة، لقد تطابق ما شاهده في الحلم والواقع بشكل أفزعه؛ فهو في الواحدة والعشرين من عمره، ولم يسبق له أن زار أو حتى مر بهذه المنطقة، ولم يسبق أن قرأ شيئًا عن هذا البيت أو سمع عنه حتى؛ فكيف استطاع أن يشاهده في عالم المنام؟ بل ويدخل إليه، بينما هو في الواقع مغلق بقفل محكم! ثم من يكون هذا الرجل نحيف الجسم، الجالس قرب القبر؟

ولا أعلم لماذا خطر لي حينها وجه الحاج علي بن حسين بالتحديد، وانتابني شعور بأنه يعرف سر هذا البيت، ربما لأنه كان المُثقف الوحيد من بين كبار السن في القرية، أو لأنه كان معروفًا بالورع والتقوى، بحيث أن الناس كانوا يأتمنونه على أموالهم وأسرارهم.

بوقار بيت الأدب

وكان يقيم في بيت متواضع، ويستقبل الناس في مجلس بسيط، عُرِّيَت جدرانه من ألوان الطلاء، ويفترش أرضه حصير من خوص النخيل، وتصطف المسَاند القديمة على جانبيه.

وكان هواء عليل يتسرب من الشباك الخشبي، حين جلست والطالب، نرتشف استكانات الشاي، وأعيننا لا تغادر الرجل المهيب، ششبعينيه الحادتين، وأنفه المدبب ولحيته البيضاء، منتظرين رأيه فيما قصصناه عليه.

وبعد دقائق من الصمت، كانت فيها أصابع الحاج تحرِك حبات المسبحة برتابة تتجاوب وصوت المروحة، رفع رأسه، وخاطب الطالب قائلًا: أنا لا أعلم شيئًا عن سر الأحلام يا ولدي، لكن رؤياك صادقة فيما يبدو، وربما تكون روح الرجل لا تزال عند قبره، قلقة مضطربة.

وتابع الحاج علي: لقد وفد الرجل إلى القرية، واختارني أنا شخصيًا، ليحكي لي ما جرى له، ملتمسًا التكفير عن خطيئاته.

لقد سطا على ميراث أبيه، وأرغم أختيه على التنازل له عن البيت الكبير، ثم استثمر المال، ونجح وأصبح ثريًا، لكنه لم يكن سعيدًا في حياته، بل ماتت زوجته وهي تضع طفلهما الذي لحق بها بعد أيام، وتزوج بأخرى ولم يسعد معها أيضا؛ إذ ماتت حسرة على ابنها وابنتها الذين غرقا معًا في عين الماء، فتصور أنه ملعون، فاعتزل الناس.

والحق انه ساهم في مشاريع كثيرة في القرية، فالمسجد الكبير لم يكن له أن يقوم لولا المال الذي قدمه، وبيوت كثيرة كانت على وشك الوقوع، ساعد أهلها على ترميمها، وكان يدفع لي مبلغًا شهريًا، لأوزِعه على الفقراء والمحتاجين، لكن يبدو أن نفسه قد غشيتها كآبة شديدة، لم تنفع في كشفها كل هذه الخدمات والمساعدات، فسارع إليه الموت، خصوصًا وإن أُختيه لم تقبلا توبته.

الزُجَاج السَميك

لم يترك طريقة ولا واسطة، تُلِين قلب أبيه إلا وسلكها، لكن دون جدوى، حتى أقر في نفسه أنَّه يكرهه ويرغب في تقزيمه أمام إخوته، بل أمام الآسيويين الحفاة الجياع اللابثين سنوات عديدة خدمًا لأبيه.

هذا مكان رائع يطل على شارع تجاري، كان يمكن أن يشيَّد فيه محلًا يُدِر دخلًا ممتازًا يقيه العوز، ويزيل ما علق بقلبه من التعاسة والشقاء وهو يجري وراء عمل يعتاش منه، بعد أن عاد من الخارج بشهادة لم يفد شيئًا منها.

رغم ذلك؛ رفض أبوه أن يساعده، دون أن يوضح السبب.

- هل أبدى أحد من إخوتي رغبته في المكان؟

- لا.

- هل هناك مشروع تخطط له؟

- لا.

- ماذا إذًا؟

ويصمت أبوه، ثم يتشاغل عنه بهاتفه.

ثم يتفاجأ في صباح يوم نحس بالآسيوي وقد شمّر عن ذراعيه للعمل بهمّة، ولا تجديه نفعًا، ثورته عليه، ولا صراخه الذي ارتفع حتى جاوز محيط الدكان، ولا شحوب وجهه وأبوه ينهره أمام الآسيوي.

وها هي البرادة اليوم رائعة بواجهتها الزجاجية السميكة، بأرففها الممتَدة على طول الجدران مليئة بالبضائع، مقزِّزَة بالآسيوي كريه الرائحة، يتحرك بخفَة ملبيًا طلبات الزبائن، وعلى فمه ابتسامة الظفر، وربما الشماتة به هو الواقف في الخارج، ينظر إليه بعينين ملأهما الحقد.

ورغم تحذير أبيه، دخل البرادة وفتح باب الثلاجة وأخذ عُلبة مياه غازية، ثم ألقى بثلاث قطع نقدية من ذوات الخمسين فلسًا على طاولة الآسيوي باستهانة.

وكان يودُّ لو أنه يحتج ولو بكلمة، لكي يمطره بوابل من السُباب، إلا أنه آثر الصمت وابتسامة الذلة والمسكنة ترتسم بوضوح على وجهه، فتركه بعد أن

بوقار بيت الأدب

سدَّد إليه نظرة تُشي بكل ما يعتمل في قلبه من احتقار لعامل تمسكن حتى تمكن من أن ينال هذا الجزء الرائع من بيت أبيه، مُجْهِضًا حلمه الجميل.

وهزَّ رأسه عجباً وسخرية، متسائلًا عن سر هذه القسوة، إن أباه لا تخفى عليه خافية، ويلحظ كم أن ولده، لا يترك يومًا يمرّ دون أن يراجع الوزارات والمؤسسات، مع ذلك يفضِل عاملاً آسيويًا عليه.

ثم ألا يكفيه أنه ضيعه صغيرًا وتركه لخالته تربيه، بعد أن ماتت أُمه في عزّ الشباب! ليعود؛ فيجرعه سم التفريق بينه وبين إخوته غير الأشقاء.

لقد نسي أُمه تمامًا، فما عاد يذكر اسمها ولا يترحَم عليها، فهل يتمنى موته هو الآخر؟

ورن هاتفه، وقرأ الرقم؛ فأجاب وقلبه يخفق بشدة، إلا أن المتحدثة كانت تخبره أنه رسُب في امتحان الوزارة.

أغلق السمَاعة، وقد خيَمت عليه سُحب غليظة من الهم والكآبة، شعر بنفسه سمكة صغيرة تحاول الصعود وسط أمواج عاتية، كأنّما رياح سموم تدفع به للبعيد، فيما جسمه عاجز عن مقاومتها.

لماذا يعاني كل هذا؟ هل ما يطلبه كثير؟ لماذا ينعم غيره بحنان الأب والأم بينما هو محروم منهما؟ لماذا يحقق آسيوي قبيح النفس والمنظر أمله بينما يقف أبوه سدًا منيعًا أمام طموحه؟

امتلأ وجهه دمًا، وانتفخت أوداجه، وتحوَل إلى تنّين ينفث حقدًا احمرًا مرعبًا ودَّ لو يشوي به وجوه الناس دون استثناء، صغيرهم وكبيرهم رجالهم ونساءهم. ومضى وفتح الباب على يمين برّادة الآسيوي، لاعنًا الناس والأحياء وكل شيء وقعت عليه عيناه.

وصعد درجات البناء إلى الطابق الأول، وفتح باب غرفته ورمى بنفسه على السرير، وغفت عيناه وقلبه ما زال يشتعل حقدًا وكراهية.

بوقار بيت الأدب

استيقظ على رائحة دخان وعلى أصوات مختلطة، ومن نافذته شاهد الناس، يَهرعون إلى برّادة الآسيوي.

ماذا حدث؟ نزل بأقصى سرعته، فشاهد الآسيوي ممدّدًا على الأرض، والناس يحاولون إسعافه، ومجموعة أخرى تحاول إخماد النيران المشتعلة في البرّادة.

همّ بالمساعدة إلا أن يدًا قوية أمسكت به، تطلَّع يمينًا ويسارًا فلم يجد أحدًا، ارتعش جسمه وأحسّ بحقده يتجسّد أمامه، ويمنعه من القيام بأي شيء، فارضًا عليه أن يشاهد كل ما يجري بسلبية غريبة عليه.

وتراجع للخلف، طائعًا غير قادر على مخالفة الطيف الخفي، بل إن إحساسًا بالراحة أخذ يملأ قلبه، وخفقت جوانحه خفقة الفرح، حين أدرك أن النار أتت على كل ما في البرّادة، وأن الآسيوي في حال حرجة.

بوقار بيت الأدب

السَّاعة الثانية بعد منتصَفِ الليل

تُوفي الحَاج محمد في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، في ظروف بالغة السوء، كان الظلام مُخيما بعد انقطاع الكهرباء، وكان المطر ينهمر بغزارة، بحيث سدَّ الطرق وملأ الشوارع بالبرك والأوحال، ولاذ الناس ببيوتهم يحتمون من زخَّات كأنها غضب الَسماء، يصاحبها رعد مرعب، تضُج له قلوب الكبار قبل الصغار.

ولم تكن زوجة الحاج محمد الأولى ولا أي من أبنائه منها إلى جانبه ساعة موته، وإنما أخرى شابة، هي أم لثلاثة أطفال أكبرهم لا يتجاوز السابعة، وجدت نفسها في وضع لا تُحسد عليه؛ فعدا عن كونها غريبة على أهل البلد، كانت مكروهة من أهل ضرتها، وأهل زوجها، ومن جاراتها، على حدٍ سواء، نظرًا لاعتقادهم أنها امرأة سيئة؛ سرقت زوجًا من امرأة مخلصة لبيتها وأبنائها.

وفي ذلك الظرف الكئيب، وسط كثافة الظلام، وهزيم الرعد، وضجيج تساقط الأمطار على زجاج النافذة، لم تجد الزوجة الشابة بدًا عن إبلاغ ضُرَتها هاتفيًا،

بموت زوجها، والجلوس قرب جثمانه المُسجى على فراشه، عاجزة إلا عن الانتظار.

وإنها لفي جلستها هذه، تتقاذفها رياح الواقع الصعب، يمينًا ويسارًا، وتطرق رأسها هواجس المستقبل بمطارق من حديد، لتشعر وكأنها تحدّرت من قمة شاهقة إلى الحضيض، حين قطعت حبلًا كان عليها أن تحافظ عليه، فلا زوجها دام لها، ولا أبناءها استووا شبابًا يعينونها على شدائد الحياة.

لقد أوقعت بالرجل الكهل، وفرقت بينه وبين أبنائه الكبار، وملأت قلبه حنقًا وغيظًا، بحيث اقتنع أنه لا يمكنه الاعتماد على أحد منهم، وأنّ أبناءه منها هم وحسب سنده الوحيد، وفوق ذلك لم تحاول أن تزيل شيئًا مِمّا علق بأذهانهم، بل نفرت منهم نفوًرا شديدًا، جعلها لا تتحفَظ في إظهار مشاعر البغض لهم.

أما ضرتها فشأنها معها كان مختلفًا، لقد فشلت في انتزاع حبه واحترامه لها، فإن الرجل الذي باء بحمله الثقيل، ظل طوال الشهور الأخيرة يعذبه إحسَاسه بالذنب، نظير ما اقترفت يداه بحق أمّ أولاده؛ فكان لا يبرح يتذكر ما سَلف من

بوقار بيت الأدب

أياديها البيضاء؛ فهي طيبة ابنة طيبين، لم يحدث يومًا أن شكت من قِلة مال أو سوء حال، لأحد من الناس، على رغم عصبيته ومزاجه المتقلب. أستاذة في العناية ببيتها، وبحسن ترتيبه، وطاهية لا تجاريها أخرى؛ تتقن من المهارات ما يؤكد أنها سيدة بيت حقيقية، أعدَّت من قبل أمها لتكون زوجةً صالحة، لا تطلب شيئًا سوى رضا زوجها، وسوى نجاح أبنائها واستقرارهم مع زوجات صالحات.

وعندما اضطر للزوم الفراش، بعد إجراء جراحة لفتح القلب، كان لسانه لا يتوقف عن مناداة زوجته الأولى، والثناء عليها، دون أن يتحفّظ لحظة عن ذمها هي الزوجة الثانية، وإلصاق صفات الكسل والإهمال والبلادة بها، متَهِما إيّاها بسوء النيّة، وتمنّي موته والتنصل من عبء رعايته، وقد بلغ بها الغيظ أشده، حين أبدى ارتياحه لأنه لم ينجب منها بنات يكن على شاكلتها.

والحق أنها لم ترتبط بالحاج محمد حبًا فيه، أو إعجابًا بسجاياه، وإنما هربا من واقع صعب، لم تشك في أن جميع شقيقاتها يشاطرنها الرغبة في الهروب منه.

بوقار بيت الأدب

لقد كانت ضائعة وسط ثماني بنات، ضاق بهن أبوهن، حتى تمنى موتهن جميعًا، وكان يقول إنه مستعدّ لمبادلتهن بولد واحد يقف إلى جانبه ويشد ظهره، وقد باعها لزوجها هذا الميت، زاهدًا فيها، سعيدًا لأنها ستفارقه إلى بلد بعيد، وكانت هي بالمقابل لا تقل سعادة عنه لتخلصها من بيت يقيم فيه أب لئيم وزوجة أب قاسية.

ولو أن أمّها كانت على قيد الحياة، لكان من الممكن أن تحظى من الحنان بما يرقِق شعورها، ويهذب أخلاقها، لكنها لم تنل منه سوى نزر يسيل، إذ سرعان ما ارتحلت أمها إلى الرفيق الأعلى؛ فعاشت بين أخوات كُن قانطات من كل شيء، وفي هجير أبٍ كان يقابلها بالشدة في القول والفعل، ولم ترث منه سوى الوجه العبوس، والمزاج السيء، وضيق النفس لأتفه الأسباب.

وتمنت صادقة لو أنها فازت بأم تشبه ضرتها، لكان لحياتها أن تنقلب رأسًا على عقب، وشاع في نفسها إحساس هو مزيج من الاحترام للمرأة العظيمة،

والاحتقار لنفسها، التي دفعت بها لأن تسير في هذا المنزلق المظلم، فتزعزع أركان بيت كان نموذجًا للبيت الكريم، وتختم على سعادة من فيه بالشمع الأحمر.

وصحت على صوت ضرتها وهي تدخل البيت، بصحبة أبنائها الثلاثة، ثم تفتح باب الغرفة، وتشاهد زوجها الميت، فيعلو صراخها شاقًا هدوء الليل، أما هي فانزوت، شاعرة بنفسها تتضاءل حتى تختفي.

بوقار
بيت الأدب

بوقار
بيت الأدب
Bouvar

الشبَّاك

لابدَّ أن رؤيته أصبحت مزعجة، شديدة الوطأة على النفس، وإلاَّ لما تحاشاه الناس، وتجنَّبوا لقاءه، لكنه ليس مستاءًا كما يظن الحمقى، أبدًا، لقد سعى لأن يضع بينه وبينهم حاجزًا شديدة الصلابة، وقد نجح في مسعاه، فصار الجميع يخشون نظراته الحادة ولسانه السليط.

وإنَّها للذة عظيمة، يحرص على تذوقها كل يوم، حين يفتح شباك نافذته، مراقبًا الناس، ساخرًا منهم، مطلقًا تعليقات كالحمم، لا يسلم منها صغير أو كبير، رجلًا أو امرأة، مندفعًا في الهمز واللمز، مشيرًا بيديه، محرِّكًا رأسه ..

- أنظري لهذا الولد ألا يشبه الكرة؟

وتضحك زوجه، ثمَّ تعبس، ناقمة أنها لم ترزق بالولد حتى الآن.

ويعود فينفث من سيجارته الرخيصة، ويزيد من حِدَّة تطلعه للناس.

وتمر فتاة مُدلَّلة تمسك بيد شقيقها الصغير.

- اللعنة عليكِ وعلى أمك وأبيكِ.

ويشاهد طفلًا يعرج.

- أليس بن فلان؟

وتشاركه زوجه الضحك.

- وأمه كالبطة أيضًا يا زوجي العزيز.

ثم يشاهد تلميذان مُقبلان بثيابهما النظيفة دائمًا، حامِلان كتابهما، فيشعر بأوردته تكاد تنفجر غلًا وحسدًا.

هما دون غيرهما من الأطفال، يرفعان ضغطه، إنهما أشطر تلاميذ الحي، يرسلهما أبوهما لمدرس عربي، يقضيان معه ساعات فوق دراستهما النظامية. ينفق عليهما ما يغطي تكاليف أسرة كاملة، وغدًا سوف يتخرجان من جامعة مرموقة، وينالان شهادة كبيرة تخوّلهما منصب أبيهما بل أرفع من ذلك.

أبوهما مصرفي كبير، يتعمد ازدراءه كلما التقى به، راتبه أضعاف ما يناله بشِق النفس. يقيم في فيلا فخمة في آخر الشارع، سعيدًا بالمال والأولاد، بينما يعيش وزوجه في بيت ضيق، يكاد يخلو من الأثاث، تضطر زوجته للعمل على مكنة الخياطة، وفوق ذلك لا عقب لهما.

وتمر من أمامه أشباح طفولته البائسة، عصا أبيه تنهال على ظهره لأقل هفوة، فشله في الدراسة، تعرُّفه على شلة السوء، إدمانه الخمر، ثم السيجار، ثم المخدرات، فقدانه وظيفته، حكاية زوجه الأولى التي سخرت منه وهربت مع آخر.

بوقار
بيت الأدب

ويرمق السماء، ويصيح بصوت منكر.

- لماذا تفعل بنا ذلك؟ لماذا؟

ويمتلأ رأسه دمًا، وتدور به الدنيا، ويوشك أن يقع، فيسارع للجلوس، وفمه لا يتوقف عن اللعن والسب وقذف الناس بأبشع النعوت.

بوقار
بيت الأدب
Boovar

الطيور لا تحِبُ أن تزُور المَقابِر

زملائي الأربعة يحملون نعشي، هذا كل ما حظيت به من تكريم، لا أهل، لا أصدقاء، لا جيران، ولا أي من أهل الإيمان الراغبين في الثواب الجزيل.

فقط أربعة يحملون نعشًا قديمًا، تفضل به أهل القرية الظالم أهلها، الممعنة في إذلال كل غريب يبحث عن لقمة عيشه، بعيدًا عن أهله ووطنه.

ساروا في خطوات بطيئة، صامتين، واجمين، محزونين لفراقي، حتى إذا وصلوا لقبري قال أشدهم التصاقًا بي: سيرتاح الآن.

ومسح دمعة عزيزة من عينه.

قال الثاني: بلى؛ سيرتاح لا شك.

وقال الثالث وكان أكثرهم مشاكسة لي: لقد أحببته، أقسم اني أحببته.

فعلق الرابع بالقول: لقد انتهى كل شيء الآن، فلتدعوا له بالمغفرة والرحمة.

بوقار بيت الأدب

أنزلوا جسدي للقبر وأهالوا عليه التراب، ثمَّ قرؤوا شيئًا من الأوراد والأدعية وانصرفوا.

بقيت وحدي أتأمل قبري والحجارة الملتفة حوله، خائفًا من الدخول فيه.

لا أحد في المقبرة سواي، فقط أنا الجالس عند القبر، واضعًا ذقنيه على كتفيه، متسائلًا: وماذا الآن؟

اقترب عصفور من قبري، ربما أغراه مرآى الرمل الناعم. سعدت به جدًا، وتمنيت لو يمكث طويلًا فيه، لولا أن جاءه حجر من بعيد، جعله يفر فزعًا. كان طفل مشاكس، قد رمى بحجر، وأقبل مهرولًا وراء العصفور. غضبت جدًا، وتمنيت لو أعاقب الطفل، لكن ما باليد حيلة.

دخل شاب من الباب الكبير، امتلأت أملًا بزيارته قبري، لكنه توجه لآخر، قرأ عنده شيئاً من الذكر، وانصرف دون أن يعنى حتى بالنظر إلى قبري.

بوقار بيت الأدب

مكثت في مكاني قرابة الساعتين، عاجزًا عن فعل شيء، حين صحوت على صوت جلبة قادمة. أسرعت لباب المقبرة، كان خلق كثير يتقدمون حاملين نعشًا جديدًا.

دخلوا المقبرة، وأنا أتابعهم بعيني، ثم توقفوا عند الزاوية اليسرى منها. أنزلوا الميت في لحده، والتفوا حول القبر، يستمعون للأذكار. دخلت بينهم، فوجدتهم جميعًا واجمين، لا دموع ولا كلام. عجبت لأمرهم، حين سمعت أحدهم يهمس لآخر:

- أحقا مات منتحرًا؟!

- يبدو ذلك، لقد حفر قبره بيده وأوصى أهله أن يدفنوه فيه، بعد أن أكد لهم أنه سيموت هذا اليوم.

- إذًا فهو خارج من رحمة الله.

صاح رجل قريب منهما: استغفر الله يا هذا، رحمته وسعت كل شيء.

لزموا الصمت جميعًا، فيما رحت أمنّي النفس أن أجد لي رفيقًا في عالمي، هو صاحب هذا القبر، غير أنّي لم ألحظ أحدًا، حتى بعد أن انصرفوا، انتظرت طويلًا دون فائدة.

تساءلت: ربما ذهب كما يقول الرجل إلى...

فزعت من الفكرة فزعًا شديدًا، وسارعت بالرجوع لمكاني عند قبري، ولم يخفف شيئًا مما أنا فيه، سوى دخول طفلة في السادسة من عمرها إلى المقبرة. كانت ابتسامتها رائعة وهي تلعب ببالونها. سرَّت عني كثيرًا، حتى أزالت خوفي. سألت الله أن يطيل عمرها وأن لا تكون في مكاني إلا بعد عمر طويل ملؤه السَّعادة والهناء.

سمعت صوتًا قويًا ينادي بالرحيل، أسرعت إلى مصدر الصوت. شاهدت سفينة ضخمة، تنتظر الإقلاع، وعديدين يصعدون إليها.

كان الربان يصيح: لا تحملوا شيئًا معكم، كل ما تحملونه سيلقى للبحر.

اقتربت منه مسَّلما، فتطلع فِي لبرهة، ثم أشار بيده وقال: لا، لست من ركاب السفينة.

أوشكت على الذوبان تأثرًا، فسَارع للقول: أنت مسجَّل في الرِحلة المقبلة.

انتهزت الفرصة فقلت له: ألا يمكنك أن تقلني معكم؟ أنا غريب عن هذه الديار، ولم أحظ بزيارة أحد.

فكَّر الرجل لبرهة، ثم ابتسم بمودَّة: لا بأس، لن يعترض أحد على ذلك.

ركبت السفينة، فمضت تشق عُباب البحر.

بيت الأدب

بوقار بيت الأدب

الفقرُ يقبَع بين أرفُف المَكتبة

كان جرَّاح واستشاري العيون الدكتور أحمد يعقوب واقفًا يتأمل في سُور البيت القديم، حين أحسَّ بحركةٍ خلفه.

التفت فشاهد كهلًا قصير القامة، يُطالعه بريبة، وعلى رغم السنوات العشر، تعرَّف على الرجل، كان جارهم الحاج عبدالجبار رفيق أبيه، وأكثر الناس احترامًا وتقديرًا له من بين معارفه.

قال في صوت غليظ:

- أنا الدكتور أحمد بن الشيخ يعقوب.

رفع الرجل حاجبيه دهشة، وبعد تأمُل قصير، قال: لم نجدك في فاتحة أبيك!

- تعذر عليَّ ذلك.

- كان يتمنى رؤيتك بشدَّة.

قال بجِدة: لم يكن باليد حيلة، لو رجعت لما عدمت الموت أو الاختطاف.

ارتسمت ابتسامة ساخرة على وجه الرجل القصير: تمنَّيت لو أنك خاطرت، فهو أبوك على كل حال.

ازداد وجه الدكتور تجهُمًا فسارع الرجل للقول: عمومًا هذا بيت أبيك، تركناه كما هو، لم يعبث أحد بأيٍ من محتوياته، عدا عن قيام أم جابر بكنسه بين حين وآخر.

- جزاكم الله خيرًا.

- هل المفاتيح بحوزتك؟

- لقد أضعتها للأسف.

ارتسمت الابتسامة الساخرة مرة أخرى على وجه الرجل القصير: انتظرني ريثما آتيك بها.

وغاب لدقائق، عاد بعدها وناوله المفاتيح وانصرف مسرعًا، كأنما يَفِر من شيطان رجيم.

لقد مرَّت عشرة أعوام منذ أن ترك أباه الشيخ، وآثر الهجرة والاستقرار في المملكة العريقة، طبيبًا حاذقًا وأستاذًا جامعيًا مرموقًا.

تقدم من الباب، وفتحه، فسمع له صريرًا مؤذيًا، هزَّ على إثره رأسه، في حركة وشت بمزاجه السيء.

ولج للرواق فطالعه الباب الداخلي القديم، بنقوشه التراثية، كان أبوه شديد الاعتزاز بهذه الخردة.

كذلك بدت أصص الزهور، على جانبي الباب الداخلي، لقد كانت مَحلَّ عناية أبيه، يسقيها الماء كل يوم، ويجهد في دفع النمل والحشرات عنها.

فتح الباب، فتلقف أنفه الرائحة القديمة، ومدَّ يده بحركة آلية للزر على اليمين، فأضاء المصباح المكان. وكان باب المكتبة في الواجهة، أوَّل ما وقع عليه نظره، قبل أن يرتدَّ بطرفه يسارًا، لباب المجلس، حيث كان يجلس أبوه، يحوطه العلماء والأدباء، وطلبة العلم، فلا يغادرونه إلا في وقت متأخر من الليل.

بوقار بيت الأدب

مضى للداخل، وفتح الباب على يمين الدرج، فواجهته صورة أبيه، معلَّقة على الجدار أمامه.

بلى هي صورة أبيه شديد العناد، الذكي الذي أضاع عمره بين الكتب باحثًا عن زهرة الخلود.

جلس على الكنبة القديمة، القابعة في مكانها في الرواق ما بين غرفته وغرفة أبيه، ثم استسلم لرغبته في إراحة جسده، فتمدَّد عليها، بعد أن أزاح عنها الغبار.

هذا هو البيت الذي نشأ فيه مع والدَيه، قبل أن يختطف الموت أُمه، وهو الآن لوحده تمامًا، ولا يخال أحدًا من أهله وأصحابه، يتذكره، كما أن زوجه وأبناءه هناك في الدولة التي لا تغيب عنها الشمس، ولو شاء الله أن يأخذ روحه لمات وتعفن دون أن يلحظه أحد.

وإنه ليتذكر بألمٍ طفولته الحزينة، صِباه الكئيب، أحلام الشباب المطمورة، تخرجه من الجامعة بمرتبة الشرف، عذاب البحث عن عمل، اليأس والتفكير في الهجرة.

لم يعترض أبوه على فكرة الهجرة، بل شجعه على السفر، كان من رأيه أن البلد انتهى تمامًا، ولن تتحسَن أحواله إلا على يد نبي مرسل من السماء.

كان يتنبأ بجوعٍ سيأكل كل طبيعة سمحةٍ في النفوس، ويخرج شرورًا لا قِبل للناس بها. جوع سيحول الناس إلى وحوش همُّها أن تأكل ما يسدَّ رمقها. شلال دم لن يتوقف عن الجريان، وجرائم تقشعر لهولِها الأبدان، حتى تستطيب الأم أن يموت ولدها ولا يقع في براثن الفقر والمرض.

لذلك عقد العزم على الهجرة، حيث يمكنه أن يعيش محترمًا، آمنًا على نفسه، منصرفًا للعمل والدراسة، وجمع ثروة تضمن له حياة رخية مستقرَّة، وشيخوخة مطمئنة، وليس كأبيه الذي آثر عيشة الكفاف، مكتفيًا براتب التدريس، صارفًا نصفه على أبحاثه وتحقيقاته.

الأمَرُّ من ذلك أنَّه ضَعُف أمام إلحاح أُمه، فتزوجها ونقلها إلى طامورته هذه. الفتاة التي شغفت حبًا بأستاذها، عارضت رغبة أبيها، وانتقلت للعيش مع زوج لا يملك شروى نقير.

لقد خسرت المسكينة كل شيء؛ فإذا كان أباها جَدَّه، طيبًا رقيق القلب، فإن أشقَّاءها خيلانه، لم يغفروا لها ذلك، فما أن مات، حتى تقاسموا أمواله بينهم، وتركوها خاوية الوفاض. ولو كان أبوه فتُوَّة، لتمكَّن من مناجزتهم، لكنه كان مُتعلِّما ليِّن الجانب، يخشى إراقة دم بعوضةٍ وليس دم إنسان؛ يُسأل عنه عسيرًا يوم القيامة.

ابنة الجاه والعز، خسرت حدب أبيها وماله الكثير، وانتقلت للعيش مع رجل فقير. حقيقة وعتها جيدًا، فلم تترك دقيقة تمر دون أن تنفِّس فيها عن ألمها، بكلمات تكوي ظهر أبيه.

لقد حوَّلت حياته إلى جحيم، صراخ ونواح طوال اليوم، يتجاوز سقف البيت ليصل إلى بيوت الجيران، فيما أبوه لا يشكو ولا يتذمَّر، منكبًّا ليلًا و نهارًا على كتبه ودفاتره.

وابتسم بمرارةٍ حين تذكَّر تعليق أبيه، لقد دخل عليه يومًا ووجده يحمل بين يديه كتابًا، يقرأ ويهزُّ رأسه أسفًا على حاله، بينما صوت زوجتهِ يصله، جائرًا بالشكوى، لاعنا إيَّاها والساعة التي اقترنت فيها به.

قال محاولًا التسرية عنه: لا بأس يا أبي، لقد عانى سقراط كثيرًا من زوجته.

فرد أبوه بابتسامة باهته: كان محظوظًا أن حكموا عليه بشرب السم.

لكن أباه كان شخصًا مثيرا للحنق بحق؛ فالرجل صاحب العقل الكبير، والموسوعي الذي قلَّ أن يوجد له نظيرًا، كانت غشاوة على عينيه، تمنعه من تأمُّل السعادة التي يعيش في كنفها زملاؤه من الأساتذة الموظفين في الجامعات خارج وطنه. كانت عزَّة نفسه تمنعه من أن يداجي فلانًا من المسؤولين، أو يكذب في سبيل منفعة ما.

بوقار بيت الأدب

لا نفاق ولا مجاملة، فأي حال سيء يمكن أن يتردَّى إليه رجل لا يمتلك سوى راتب يأتيه شهرًا، وينقطع عنه عدةّ أشهر.

فجأة، شاهد باب الغرفة يفتح، ويبرز منه أبوه، ببشته الرمادي.

هَبَّ من فوره، وراح يُحدِّق في الجسد النحيل: أبي!

ردَّ أبوه غاضبا: بلى؛ أبوك الذي ظلَّ يحلم برؤيتك لعشرة أعوام كاملة.

خفض عينيه للأرض: أنا آسف.

- انتظرتك حتى آخر لحظة في عمري، لكنك بخلت بالمجيء، تركتني للغرباء يتولَّون دفني.

- الظروف يا أبي كانت..

- أيَّة ظروف هذه تمنع ولدًا من زيارة أبيه المُسن؟

- لقد خشيت الموت أو الاختطاف.

- لقد انتهت الحرب منذ سنوات، فلا تتعلل بمثل هذه الأمور.

- أنا !

- أعرف ماذا ستقول، لقد طابت لك الحياة، وظيفة وزوجة وأبناء، كيف تترك ذلك من أجل شيخ فقير، مُحطَّم القلب.

- صدِّقني..

- اسمعني، لقد جئتك فقط لأطلب منك معروفًا أخيرًا، لقد عشت عيشة الكفاف، بينما حضرتك لم تفكِّر في إرسال دينارٍ واحد لي.

- أنا !

- أنا لا ألومك الآن، لقد انتهى كل شيء وأنا في مقعدي الآن مرتاح مطمئن، فقط ما زال في نفسي شيء من مخطوطاتي.

- أتودُّ منِّي طباعتها؟

- نعم، إنَّ كلَّ ما أرجوه أن يقرأها الناس.

- أفعل إن شاء الله.

بوقار بيت الأدب Bouvar

- أتعدني بذلك؟

- بلى؛ أعدك بذلك.

- حسنًا، سأثق بكلمتك.

ثمَّ اختفى وراء باب غرفته.

أمَّا هو؛ فانتبه جالسًا على الأريكة يفرك عينيه، وأسرع فأمسك بمقبض باب غرفة أبيه، لكنَّ الباب كان مقفلًا.

عاد للكنبة، وألقى برأسه للخلف: كان حلما إذًا؟

توجَّه متثاقِلًا لغرفة المكتبة، فتح بابها، فشاهد الكتب في كل مكان، ترتفع حتى تصل السقف! هزَّ رأسه متذمرًا؛ لطالما حرمه شغف أبيه هذا، من أشياء كثيرة كانت في متناول الجميع.

وجد أكثر من مُؤَلَف بخط يد أبيه. أمسك بإحداها، وقرأ تحقيق لديوان الشاعر الفيلسوف، أمسك بآخر دراسة حول حقبة أدبية مسكوتٍ عنها، أمسَك بثالثٍ ورابع وخامس.

- ثمَّ ماذا؟

صاح بحنقٍ، وهو يرمي المخطوطة بعنف على المنضدة: أجبني يا أبي ثمَّ ماذا؟ ألا يكفيك أنك حرمتني من أبسط الأشياء، لتأتي الآن وتأمرني أن أطبع مخطوطاتك المغبرَّة، المُسببة للسُّعال؟

وألقى بنفسه على الكرسي، قرب المنضدة، وغطَّى وجهه براحتيه، وغرق في شعور كريه تسبح فيه أطياف ذكريات مليئة بالشجن والكآبة، ثمَّ دفع المنضدة بقوَّة بقدميه، فتناثرت الأوراق على أرض المكتبه العارية حتى من قطعة سجَّاد مستعمل.

ووقف دفعة واحدة، وصَرَّ على أسنانه، وقال في تصميم:

لقد انتهى كل شيء بموتك يا أبي، انتهى كل شيء، من حقّي أن أعيش حياتي بالصورة التي أريدها.

وأسرع فخرج من البيت، دون أن يُعنى بغلق الأبواب، وتوجَّه مباشرة لبيت جاره الحاج عبدالجبار، وطرق الباب بقوَّة، فخرج هذا متسائلًا.

ناوله المفاتيح، وسأله دون مقدَّمات:

أيمكنك أن تبيع البيت؟

ردَّ الرجل في دهشةٍ بالغة:

ماذا؟!

- كان أبي شديد الثقة بك، لذلك أودُّ منك أن تبيع البيت وترسل لي المبلغ، بعد أن تأخذ أتعابك.

وأخرج من جيبه بطاقة، ناوَله إيَّاها:

ستجد فيها عنواني ورقم هاتفي.

- لماذا تفرِّط في بيت أبيك؟

- لا أريده، لا أريد شيئًا يذكرني بهذه الحياة التعسة.

- وماذا عن مخطوطاتِ أبيك، ومؤلفاته؟

- تصرّفَ فيها، إنها لك.

ومضى، وجاره يهزُّ رأسه، ويضرب كفًا بكف، ألمًا وحسْرة.

بوقار
بيت الأدب

بوقار بيت الأدب Bovvar

الفاتِحُ العَظِيم

تأمَّل الفاتِح العظيم في عقدة الحَبل غريبة الشكل، ثمَّ أدار عينيه في سدنة المعبد، فوجدهم جميعًا خاشعين، خافضين أعينهم للأرض.

كانت أجسامهم قويَّة بفعل الأكل الطيب والشراب المنعش، بعكس أولئك الذين شاهدهم في الخارج، ضامري الوجوه، نحيلي الأجسام، بسبب الجوع والمرض، عاجزين عن الوقوف لإلقاء التحية عليه.

علت وجهه ابتسامة ساخرة، وقال لنفسه: هكذا إذًا، بهذه الطريقة، خدعوا من سبقني، واضطرُّوهم للتراجع، تُرى كم عدد الحمقى الذين وقعوا في شباكهم؟

ارتدَّ طرفه لبوابة المعبد، فوجدها ضخمة لا تشبه شيئًا شاهده من قبل. ثمّة أعمدة تناطح السحاب، غرف وأبواب لا تحصى، وعند كل باب وزاوية خادم بيده شمعة، يقف خافض الرأس، راهنًا جسده وماله وعرضه للسدنة هؤلاء، أمَّا بقية الناس، فلا قيمة لحياة أيٍّ منهم. يعيشون في أكواخ عفنة، لا تقيهم

بوقار بيت الأدب

بردًا ولا حرًا، قبور يقضون حياتهم فيها حتى يواريهم التراب، فيما يعيش هؤلاء المترفون في معابد كالقصور، يأكلون ويشربون ويبدِلون ثيابهم ناصعة البياض، وكبيرهم المبجَّل يشير للعقدة، قائلًا في صوت مهيب:

سيكون البلد لك، متى تمكَّنت من حَل العقدة.

هذا يعني أنَّه لن يملك البلد، إلا إذا حلَّت بركتهم عليه. حيلة دنيئة، ربَّما انطلت على من سبقه من المخرِّفين، لكن ليس على من أخذ العلم على يد أعظم فيلسوف على الإطلاق.

أخرج سيفه من غمده، وبحركة سرعة خاطفة هوى بقوّة على العقدة؛ فانقطعت، وتحرَّكت العرابة الرابضة في مكانها منذ عشرات السنين. شقّ الفضاء صوت كبير السدنة، كأنَّما نزل السيف على قلبه، وتراجع للخلف، ويده على صدره. جحظت عيناه، وتحوَّل لون وجهه للبياض، ثمَّ خرَّ إلى الأرض وهو يخور كالثور.

بوقار بيت الأدب

سارع السدنة لنجدته، لكنَّ الموت كان أسبق. لقد وعى عقله جيِّدا أنَّ قطع العقدة يعني انتهاء سلطانه على الناس، لذلك آثر الرحيل، على العيش تحت سلطان هذا الفاتح العظيم، أمَّا بقيَّة السدنة، فتهاووا سجدًا على الأرض، وتبعهم خدّامهم وحملة الشموع.

بوقار
بيت الأدب

بوقار
بيت الأدب
Bouvar

توائِمٌ خَمسَة

ردَّدت النظر بينهم وأنا في غاية العجب؛ خمسة توائِم يتطابقون طولًا وعرضًا، لا تكاد تُميِّز ملامح أحدهم عن الآخر. طيبون، وديعون، ظرفاء محبِّين للفكاهة، أنيسين للنفس.

ولابدَّ أنّ دهشتي كانت من الوضوح بحيث دفعت أقربهم لي للابتسام والقول:

ماذا؟

- لا شيء.

- لماذا تُحملِق بنا هكذا؟

ضَحِكْتُ!

- الحقيقة أن منظركم يدعو للعجب!

ابتسم ثمَّ سدَّد لي نظرة نافذة:

ماذا لو علمت أننا لسنا بتوائم؟

-ضَحِكْتُ للنكتة الغريبة، غير أنَّ الرجل عاد فأكدَّ في صوت أشد وضوحًا:

صدقني لسنا توائم كما تظن.

-ووجدتهم جميعًا يبتسمون لي، فرحت أتأمل ملامحهم، متَّهما عيني بقصر النظر، لكني لم أجد ما يغيِّر قناعتي، لولا أن مدَّ لي الأول بطاقته الشخصية، وتبعه الثاني والثالث والرابع والخامس؛ فقرأت فيها العجب العجاب؛ فبين كل واحد منهم عام كامل، ورغم ذلك لا يختلفون في شيء.

قلت: سبحان الله.

ثم عرتني رعشة خوف، اصطكَّت لها أسناني، قلت على إثرها:

لا أخالكم بشرًا سويًا.

وسارعت فنفضت جسمي، فانسلخ جلدي عنه، وبدوت على هيئتي هيكلًا عظميًا هائل الحجم.

أذهلَتْهم المفاجأة، وسارع كبيرهم للقول:

أرجوك لا تفشي سِرَّنا لأحد.

- لكنني أفشيت سرِّي لكم.

قالوا في صوت واحد:

- نعدك أننا لن نخبر أحدًا بما شاهدناه.

وهكذا كان اتفاقي معهم.

عندها لم يجدوا سببًا لأن يخفوا أشكالهم، فعادوا لصورهم الأولى هياكل عظمية، أكل الدهر من قِحاف جماجمهم وشرب.

بيت الأدب

بوقار بيت الأدب Bouvar

قَرار نِهَائي

كان قد وصل لقرار نهائي، وهذا يعني أن يعيش التجربة الرهيبة نفسها، وأن يعاني مضاعفاتها للمرَّة الثانية.

إن جسمه ما زال يحتفظ بآثار الجراح الماضية، وإنَّه ليشعر بقشعريرة تسري في أوصاله لمجرَّد التذكر، غير أنَّ السجن أو الفقر، أشدُ وطأةً على نفسه، وإذا كانت الزوجة المُحبَّة ستتفهُّم الأمر، فهل سيعي أولاده أنَّ أباهم مُطالب بمبالغ كبيرة، وعليه تسديدها للناس وإلا فسيكون مصيره السجن لسنوات طوال؟ كيف وأكبرهم لا تجاوز الرابعة عشرة، وأصغرهم فتح عينيه وفي فمه ملعقة من ذهب.

أحسَّ بلمسة رقيقة على كتفه، ابتسم رغم ضيقه وكدره.

- إجلسي يا زوجتي العزيزة.

جلست، مُؤْمَّلة بصيصًا من الضوء.

- لقد خذلنا الرجل، رفض أن يقرضني دينارًا واحدًا.

لزمت الصمت، عاجزة عن قول كلمة واحدة.

- لابد من حلٍ سريع، أصْحاب المال لن ينتظروا أكثر.

بدت أشبه بسمكة تقاوم التيَّار.

- ليس لنا إلاَّ..

إنفجرت في البكاء

- جِد حلًا آخر أرجوك.

- ما باليد حيلة.

- لقد أوشكت على الهلاك في المرَّة الماضية.

- كان الله في العون.

- إنَّ صحتك لم تعد كما في السابق، سيسلبون ما تبقَّى من قوَّتك.

- فليأخذوا روحي لو شاؤوا، لن أترككم للضياع.

أمسكت بكفَّيه وأخذت تغمرهما بقبلاتها.

- أرجوك، سنجد حلًا، صدقني نستطيع تخطى الأمر.

- ليس سوى حَل واحد، أنتِ تعلمين ذلك.

- أرجوك.

قال في تصميم:

لا يوجد متسع من الوقت يا زوجتي العزيزة، علي أن أنهي الأمر قبل عودة الأولاد.

وأضَاف في صوت مرعب:

لا تستدعي الطبيب، مهما حصَل.

وبسرعة، ركض لغرفة المكتب، أوصد الباب، ثمَّ أزاح السجّاد عن الأرض، فبدت حفرة كبيرة مغطاة بقرص شديد الإحكام والصلابة، نزع ما فيه من مغاليق، ورفع الغطاء، ثمَّ ألقى بنفسه.

وقع في مكان مظلم، شديد العفونة، يشبه قبرًا كبيرًا.

ردَّد كلمات غير مفهومة وأحرفٍ مبعثرة.

انتشرت رائحة غريبة، تلاها دخان كثيف، وارتفعت أصوات منكرة، وبرزت أشكال أحسّ بها تحوطه من كل جانب، ثمَّ تبيَّن مسخًا مهُولًا بعينين كشعلتي نار، ونابين يصلان للأرض، يجلس على كرسيٍ كبير.

قال في صوت مضطرب:

جئت أطلب خدمة.

ردّ المسخ وهو يحرِّك لسانه مُتلذِّذا:

لا بأس، لكن الثمن مضاعف هذه المرّة.

أوشك على التراجع لولا أن لاحت له صور أطفاله، فقال بشجاعة: خذ ما شئت.

أمسكت به أيد ثقيلة كالصخر راحت تهصُر جسمه، حتى شعر بعظامه تتكسَّر، ثمَّ انغرزت أنياب ضخمة، لم تبق قطرة دم واحدة في أوردته.

صاح بكلُّ ما تبقَّى في جسده من قوّة، حشرج، ثمّ هوى إلى الأض.

فتح عينيه ليجد زوجه جالسة بالقرب منه، جاحظة العينين ممتقعة الوجه.

تأمّل في المرآة الكبيرة أمامه، راعَه أنَّ وجهه شاخ حتَى برزت عظامه، وتحوَّل شعر رأسه للبياض، ونحف جسمه بشكل مهول.

أراد أن يقول شيئًا غير أن عينيه اصطدمتا بعين رجل قدَّر أنَّه الطبيب. اختلس نظرة غضب لزوجه، قبل أن يسأله الرَّجل في ارتياب:

ماذا حدث لك؟ في جسمك عشرون جرحًا لم أشاهد مثلها في حياتي.

- لا أعلم، أصابني الضعف والوهن بشكل فجائي.

- كنت ملقىً على الأرض بلا حِراك، جسدك كالخشبة.

- صدقني إنَّها حَال غريبة تردني بين حين وآخر، دون أن أعرف لها سببًا.

- اصْدقني القول هل حَاولت الانتحَار؟

- لا، لا يمكنني ترك أبنائي.

- عمومًا، لقد وصفت لك بعض الأدوية والمنشِّطات.

ثم التفت لزوجه:

أرجو أن لا تغفلي عن زوجك إنه بحاجة ماسَّة للعناية والراحة.

غاب الطبيب، فانفجرت في البكاء.

- حمدًا لله أنَّك عُدَّت إلينا.

- سينتهي كل شيء خلال أيام، ناوليني هاتفي المحمول.

استلمه بيد مرتعشة، تطلَّع فيه باهتمام، ثمَّ ابتسم رغم ألمِه الشديد.

- لقد دفعوا مبلغًا ضخمًا.

- حمداً لله .

- يمكننا الآن قضاء ما علينا من ديون، والبدء بمشروع جديد.

- لن تفعلها مرَّة أخرى، أرجوك.

ابتسم ساخرًا.

- لم تعد بي طاقة على مرَّة ثالثة.

- أتعدني؟

- أعدك.

ثمَّ التفت للنافذة فشاهد نابان يطلان من وراء زجاجها.

بوقار
بيت الأدب

بوقار
بيت الأدب
Bouvar

نبذة عن الكاتب

جعفر الديري

شاعر وكاتب بحريني من مواليد المُحرَّق ١٥ فبراير ١٩٧٣.

عضو أسْرة أدباء وكتّاب البحرين.

يقرض الشِّعر والشِّعر المُوجّه للأطفال، ويكتب القصَّة القصيرة والمقالة الثقافية.

نشر في الصُّحف والمَجلات البحرينية، وبعض الدَّوريات العربية منها: العربي الكويتية، نور المصرية، سندباد العراقية.

تولّى الإشراف على الصّفحات الثقافية في شركتي دار الوطن للصحافة والنشر، ودار الوسط للنشر والتوزيع.

حصَد الجائزة الرابعة في مسَابقة شاعر الحسين عن نص وما كان لي أن أراك العام ٢٠١٣.

حصد الجائزة الأولى في الشعر ضمن جائزة كرزكان للشعر والقصة القصيرة ٢٠٢٠ عن نص في إثر وردة.

أصدر مجموعة قصصية بعنوان النافذة كانت مشرَّعة، عن دار الوطن للصّحافة والنشر، العام ٢٠١٣.

بوقار
بيت الأدب

بوقار Bouvar بيت الأدب

الفهرس

هذه المرَّة أيضًا..... ٤

الحَيّ العَتِيق..... ٨

أبناء كالجُربِ المثقُوبة..... ١٥

البيتُ الأصْفر فاقِع اللون..... ٢٠

الزُجَاج السَميك..... ٢٧

السَّاعة الثانية بعد منتصَفِ الليل..... ٣٢

الشبَّاك..... ٣٧

الطيور لا تحِبُ أن تزُور المَقابِر..... ٤٠

الفقرُ يقبَع بين أرفُف المَكتبة..... ٤٥

الفاتِحُ العَظِيم..... ٥٨

توائِمٌ خَمسَة..... ٦١

قَرار نِهَائي..... ٦٤

نبذة عن الكاتب..... ٧١